خاتمة الكتاب:

أ ـ النّتائج

ب ـ الاقتراحات

خاتمة الكتاب:

وهي تشتمل على نتائج البحث والاقتراحات:

أ ـ النّتائج:

وبما أنّ كلّ بحث علميّ يخلص إلى نتائج علمية من خلال سعيه للإجابة عن الأسئلة الأوليّة، فإنّنا قد توصلنا، ونحن نخوض غمار هذا البحث، إلى جملة من الحقائق العلميّة، تصلح إجابة عن الأسئلة والتّساؤلات التي كانت عالقةبذهنناامنذ انطلاقنا في هذا العمل؛ لأنّ نتائج البحث في نظر كثير من علماء منهجيّة البحث العلميّ ليست إلاّ أجوبة عمّا كان يثيره موضوع البحث من أسئلة وتساؤلات. وفيما يلي سرد لأهمّ ما توصلّنا من نتائج:

1 . كان لعليّ عبد الواحد وافي دور رائد في تعريف الوطن العربيّ باللّسانيات؛ ومع ذلك فإنّ أعمال إبراهيم أنيس تعدّ فاتحة عصر اللّسانيات العربيّة بمفهومها العلميّ الدّقيق، كما أنّ اللّسانيات العربية مرّت في نشأتها بمراحل شبيهة بالمراحل التي مرّت بها اللّسانيات الغربيّة من الابتداء بالمنهج التّاريخيّ ثمّ المنهج الوصفيّ فالمنهج التّحويليّ التّوليدي. ويكمن سرّ ذلك في أنّ اللّسانيات العربيّة ظلت. منذ نشأتها. عالةً على اللّسانيات الغربيّة، إذ لم تتجاوز أعمال اللّسانيّين العرب محاولة تنظير نظريّة غربيّة أو تطبيقها على التّراث اللّغويّ العربيّ أو العربيّة المعاصرة في مساحات ضيّقة؛ بالإضافة إلى أنّ مصر كانت البوابة التي انطلقت منها اللّسانيات العربيّة المعاصرة، إذ كُتبتْ لجامعاتها الرّيادة في هذا المجال، وبخاصة كلية دار العلوم.

2 . اللّسانيات العربيّة نسخة عن اللّسانيات الغربيّة في مناهجها ونظريّاتها، وهي بذلك خضعت بطريقة غير مباشرة لمنطلقات فلسفيّة وفكريّة كان لها دورها الفعّال في توجيه الفكر اللغويّ لكبار اللّسانيّين الغربيّين، من أمثال فردينان دي سوسير، وليوناربلومفليد وإدوار سابير؛ والنّظريّة اللّسانيّة التي كتب لها الرّواج في صفّ رواد اللّسانيّة الوصفيّة العربيّة هي نظريّة فيرث السّياقيّة.

3 . اللّسانيات العربيّة تمتاز عن التّراث اللّغويّ العربيّ في أنّها تبنّت آليات منهجيّة لا تمت بصلة إلى آليات المنهج البصريّ أو الكوفيّ ولا إلى نظم عبد القاهر الجرجانيّ، ومن هنا

تعتبر هذه اللّسانيات إضافة نوعيّة إلى الدّراسات اللّغويّة العربيّة على مستوى النّقد والتّحليل، إذ تمكّن الوصفيّون العرب من نقد التّراث اللّغويّ العربيّ نقدًا منتظمًا، أقلّ ما يمكن القول فيه هو أنّه كان أقرب المحاولات النّقديّة لهذا التّراث اللّغويّ إلى العلميّة، إن لم يكن علميًّا على علاّته، وذلك لاستناده إلى أسس نظريّة محكمة الصّياغة. أمّا على مستوى التّحليل، فمن أبرز إضافات الوصفيّين نظريّة تضافر القرائن التي قال بها تمّام حسّان.

4. الوصفيّون العرب لم يكونوا بدعًا في بعض ما انتقدوا به النّحو العربيّ من كبرى المسائل، كالقول بتأثير الفكر اليونانيّ فيه، وتقصير النّحاة في التّعريفات، حيث سبقهم إلى ذلك بعض النّحاة المتأخرين، وأكّد عليه دعاة التّجديد والتّيسير، لكنّ نقد الوصفيّين امتاز بأنّه نقد منهجيّ في ضوء نظريّات المنهج الوصفيّ، بخلاف أولئك السابقين الذين كان نقدهم في إطار منهج النحو القديم نفسه، كما أنّ هذا النّقد لم يتوقف مع الوصفيّين، وإنّما تناول التوليديّون العرب النّحو بالنّقد وإن كان نقدهم أقلّ حدّة من نقد الوصفيّين؛ لإقرارهم مبدئيا بأصول النّحو العربيّ وآلياته. فالنّحو العربيّ في مجمل القول، ظلّ مستهدفًا في القرن العشرين بالنّقد من قبل الاتّجاهات اللّغويّة كافة باستثناء الاتّجاه المحافظ.

5. اللّسانيات الوصفيّة العربيّة تحتلّ مكانة مرموقة في الفكر اللّغويّ العربيّ. فبعد تجارب وصفيّة متكرّرة دامت لفترة زمنيّة تزيد على نصف قرن بيسير، وما زالت مستمرة إلى حدّ الآن، أسهم الوصفيّون العرب، وبخاصة الرّواد منهم في إثراء المكتبة اللغويّة العربيّة، بأن حاولوا نقد التّراث النّحويّ، وإعادة وصفه لسانيًّا، مع تأصيل النّظريات اللّسانيّة الحديثة في ضوء هذا التّراث. وكان نتاجهم من العيار الثّقيل بحيث لا يمكن تجاهله على كلّ حال، ويستوي في ذلك مؤيّدوهم ومعارضوهم.

6. موقف القرّاء، وبخاصّة المتخصّصين منهم في مجال اللّغة، من أعمال الوصفيّين، متباين بتباين المناهج اللّغويّة. فالمتبنون للمنهج التّحويلي التّوليديّ مثلا يقفون من مبادئ الوصفيّين وأصولهم موقف المعارض المتشكّك في قيمتها، كما أنّ معظم السّائرين على منهج النّحاة المتقدّمين يقفون منه موقف المتحفظ الحذر، في حين أنّ موقف اللّغويّ المحايد ((الذي يحاول الاستفادة من كلّ المناهج اللّغويّة)) من هذه الأعمال، يتوقف على ذوقه واقتناعه

الشخصي، فيوافق على ما يشاء ويعترض على ما يشاء بناءً على ما يتوفر عنده من أسس ومبادئ لغويّة استقاها من مزيج من المناهج اللّغويّة.

7. الدّراسات اللّغويّة، والنّحويّة منها بصفة خاصّة، بدأت عند العرب. مع شيء من التّجاوز. استقرائيّة وصفيّة في كثير من أصولها ثمّ انتهت إلى المعياريّة في الفترات التي تعاقبت عليها، وبالتّحديد ابتداءً من القرن الرّابع الهجري فصاعدًا. فالمتأمّل في الأصول اللّغويّة التي شُيّد بها التّراث اللّغويّ العربيّ يتلمس ملامح وصفيّة متقدّمة على زمانها، ولم يدركها الغرب إلاّ في أوائل القرن العشرين، وبخاصّة فيما يتعلّق بما ينبغي من الخطوات والاحتياط أثناء جمع العينة الكلاميّة؛ ما يعني أنّ الأصول التي يطرحها الوصفيّون بديلاً عن أصول التّراث اللّغوي، والنّحويّ منه بصفة خاصّة، لم تكن جديدة على هذا التّراث، والموروث النّحويّ الذي ينطق بوجودها لبرهان ساطع على ذلك، وإن كان علماء أصول النّحو لم يذكروها. في حدود علمنا. من ضمن أصول النّحو.

8. الوصفيّون يرفضون القياس بقسميه المنطقيّ واللّغويّ أصلاً من أصول النّحو. ومع ذلك، فإنّ ما يعرف في التّراث اللّغويّ العربيّ بالقياس اللّغويّ أو النّحويّ، أمر لا يمكن الاستغناء عنه في الدّرس اللّغويّ، لاسيّما عند التّطبيق ((الاستعمال)). أمّا القياس المنطقيّ، فهو محلّ الشّقاق بين اللّغويّين، على أنّنا لا نرى مانعًا من الاستعانة به في قدر محدود لا يبلغ باللّغوي حدّ المتاهات.

9. ثمة إطارٌ عامٌ لنقد النّحو يتمثّل في أنّه صادر عن تفكير فلسفيّ ومنطقيّ، وأنّه لم يدرس العربيّة بمستوياتها المختلفة. فالبحوث التي أرّخت للنّحو العربيّ تكاد تتّفق على تأثر النّحو بالفكر اليونانيّ في المراحل المتأخرة، وبخاصّة في القرن الرّابع الهجري فصاعدًا كما يرجح هؤلاء الباحثون؛ على أنّ من هذه البحوث ما يحاول إثبات التأثر في مرحلة التأسيس والنّشأة، ومنها ما ينكر ذلك. ومهما يكن من أمر، فإنّ تأثر الدّراسات اللّغويّة بالفلسفة لم يعد أمرا مرفوضا ولا ممقوتا بعد ظهور مدرسة تشومسكي، ما يجعل هذا النّقد يفقد الكثير من فاعليّته ومصداقيته، ولم يعد الإجماع عليه باعتباره حقيقة علميّة لا مراء فيها قائما، بل أصبح قابلاً للنقاش في الأوساط اللّسانيّة. فكلّ من التّعليل والتّأويل وغيرهما ممّا يعتبر من مظاهر

تأثر النّحو بالمنطق والفلسفة، صار غداة بروز المدرسة التوليدية يحتل مكانة مرموقة ولا يزال الأمر على ذلك إلى حدّ الآن، وإن كان هناك تباين في طريقة الإجراء.

10 . اتّهام النّحاة المتقدّمين بأنّهم حصروا النّحو في الإعراب والبناء تهمة خاطئة لما فيها من التّعميم، وما أوقع الباحثين في هذا الخطإ هو اعتمادهم على مصادر النّحو المتأخرة؛ إذ للنّحو في التراث النّحوي العربيّ مفهومان اثنان: مفهوم واسع يشمل الأصوات والصّرف والتّركيب، ومفهوم ضيّق يحصره في الإعراب والبناء، وهو متأخر عن المفهوم الأول ظهورًا.

11 . عجز الوصفيّون العرب عن تقديم نموذج بديل للنّحو العربيّ، وفيه دليل على أنّ عناصر هذا النّحو شبه متكامل، وأنّ العيوب تكمن في أسلوب توظيف آلياته وأدواته، كما اتضح أنّ النّحو المعياري لا يزال يملك زمام الأمور في أغلب الأوساط التّعليميّة. ويكمن سرّ فشل الوصفيّين العرب في إحلال نحو وصفيّ محلّ النّحو المعياريّ في هذه الأوساط، في أنّ اللّسانيات باعتبارها علمًا مستقلاً لا تقدر على تعليم اللّغة بعيدةً عن المعياريّة.

12 . روّاد الوصفية العربيّة وكثير من اللّسانيّين العرب، يحصرون التّراث النّحويّ عندما يحاولون تقويمه، في ألفيّة ابن مالك وشروحها مع حواشيها، ولا يرجعون إلى غيرها إلاّ قليلاً، واللّغة العربيّة معناها ومبناها لتمام حسان، ودراسات نقدية لعبد الرّحمن أيّوب من خير الشّواهد على ذلك. ومع ما تتمتع به ألفيّة ابن مالك من مكانة رفيعة في الأوساط اللّغوية، فإنّ حصر التّراث فيها عند التقويم خطأ منهجيّ قد يفتقد معه هذا التّقويم بعض ما يستحقه من التّقدير العلميّ.

ب ـ الاقتراحات:

ومن خلال هذه التّجربة المتواضعة رأينا أن نقترح على المسؤولين الأكاديميّين ما يأتي:

1 . تزويد الطّالب المتخصّص في الدّراسات اللّغويّة في أوّل الأمر، بالمبادئ والأصول النّظريّة للمناهج اللّسانيّة المعاصرة، مع شيء يسير ممّا مرّت به هذه المناهج من منعطفات تاريخيّة؛ قبل الإقحام به في الدّرس التطبيقي من علم الأصوات وعلم وظائف الأصوات والصّرف والتّركيب والدّلالة والمعجم؛ لأنّه يصعب على الطّالب إدراك هذا الجانب من اللّسانيات من دون أن يكون له سابق معرفة بمفهوم اللّسانيات وأسسها اللّغويّة

ومنطلقاتها الفكريّة، فضلا عن أنّه لن يستطيع أن ينفذ إلى توظيف اللّسانيات تطبيقيًّا ما لم يكن ملمًّا وواعيا بأصولها ومبادئها النّظريّة.

2. ربط مقرر النّحو بمعطيات اللّسانيات الحديثة، لاسيّما الجانب النّقدي منها؛ أو إدراج مادّة جديدة في هذا القسم تحمل مثلا ((النّقد اللّغوي)) اسمًا لها، على أن تعنى هذه المادّة بعرض وتحليل ما قيل في حقّ التّراث اللّغويّ من نقد ونقض.

وأخيرًا، نقول: هذا ما وسعنا جهدنا إنجازه، فإن أصبنا، فذلك من فضل الله عزّ وجلّ ثمّ بفضل إرشادات الأستاذ المشرف. وإن أخطأنا، فمنّا بغير تهاون ولا إهمال، وحسبنا أنّنا بذلنا من الجهد قدر الاستطاعة. ونشكر مقدّما كلّ من يشير علينابخطإ أو هفوة وغير ذلك من الزّلات، كما نتعهّد بقبول النّقد البنّاء والملاحظات الهادفة عن طيب خاطر وصدر رحب. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، الذي بنعمته تتّم الصّالحات.